العدالة بين الشريعة الإسلامية والنظام الوضعي
من وجهة نظر الإمام المجدد بديع الزمان سعيد النورسي

أ.د.محمد محمد أبو ليلة
رئيس قسم اللغة الانجليزية
كلية اللغات والترجمة/ جامعة الأزهر/القاهرة
جمهورية مصر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

عاش الشيخ الإمام الربانى بديع الزمان النورسى عصر سقوط الخلافة العثمانية وتقسيم أراضيها، بما في ذلك تركيا نفسها، على الدول الأوروبية حتى أن استانبول وقعت تحت الاحتلال الإنجليزي، وعاش فترة حرب التحرير، ومقاومة الغزاة، وفترة انقلاب أعداء الدين في داخل تركيا على الإسلام، ومحاولاتهم المستمرة لاقتلاع جذوره من قلوب الأتراك الذين حملوا رسالته إلى أماكن بعيدة من هذا العالم. ولقد شاهد الشيخ النورسى ثورة الشيوعيين التقدميين والدُّهريين على القرآن الكريم، وعلى اللغة العربية، وعلى كل ما من شأنه أن يُظهر تركيا بمظهر الدولة المسلمة، من الطربوش إلى الحرف العربى والكلمة العربية.

عاصر الشيخُ كلّ هذه المعارك، والتيارات، والحروب التى كانت تحركها أيادٍ خفيةً، وأيادٍ ظاهرةً متمردة، أعماها الحقدُ على الإسلام، ودفعت بها الكراهية إلى محاولة إزالةِ كل أثر للإسلام في معقل آخر خلافة إسلامية؛ فقد كان الصهاينة

يخططون لاستلاب فلسطين وتشريد أهلها، وكانت فرنسا تعمل على فرنسة الجزائر، وتنصير المسلمين، وقطع صلة هذا الوطن بالوطن العربي والإسلامي الكبير.

وفي هذه الفترة العصيبة من تاريخ المسلمين، وقف "هانوتو" المستشرق الفرنسي، ومستشار وزارة الاستعمار الفرنسية، يهاجم الإسلام بشدة، حيث قد نشرت له جريدة "المؤيد" المصرية في نهاية القرن التاسع عشر مقالاً، تحت عنوان: "قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية"، وهذا العنوان في حد ذاته يمثل صفعة المنتصر على وجه المهزوم، ويعكس فى الوقت نفسه إجماع الساسة في الغرب على محاصرة الإسلام والمسلمين. وقد عمل "علي أكبر" أو "أكبر الأعظم" الذى حكم الإمبراطورية المغولية في الهند، في الفترة ما بين ١٥٥٦ إلى ١٦٠٥م، على طمس الهوية الإسلامية للهند، حيث لَفّق ديانةَ، سماها بـ"الديانة الإلهية" زعم أنه يمكن توحيد البشرية عليها، كما زعم أنها أفضل من دين الإسلام، ذلك الدّينُ البدوِى الذى انتهى عصره؛ ثم جاء من بعده "السيد أحمد خان"، وواصل مسيرة العلمانية الإلحادية، والعداء للإسلام، وموالاة الإنجليز، والدفاع عنهم، وعن حضارتهم، وعن الأناجيل والعقائد الخاصة بهم، وقد أنكر خان المعجزات، ونادى بإحلال العلم محل الدين. وفي الوقت نفسه كان هناك صراع الأيدلوجيات، كالشيوعية، والرأسمالية الليبرالية التي كانت تحاول كلها القضاء على الإسلام في آسيا، وفي أفريقيا، وفي العالم أجمع.(١)

وفى هذا الخضم الهائج، والعواصف المزمجرة، ظهر نجمُ بديع الزمان "سعيد النورسى" ليكون مجدد القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادى.

إنه مجدد الإسلام حقاً في القرن الذى كان فيه؛ وهو مجددٌ من طرازٍ أوحدي، فهو علاّمة موسوعي، سواءً فيما قرأ، أو فيما أنتج. إنه عالم سلفي، وصوفي رباني، ومفكر، ومبدع، ومجتهد، وفقيه، ومحاورٌ، ومفسر متمكن في القرآن ومعانيه وآثاره، وداعية، ومتكلم، وأديب فذٌّ، له أسلوبٌ متميز، مفعم بروحانية فياضة آسرة، كان الشيخ هذا كله، مع تواضع جمٍّ، وتجرد نَدَرَ أن يكون له مثال. (٢)

حفظ الشيخ سعيد النورسي القرآن الكريم صغيرا على عدد من المشايخ، ومهر في تحصيل علوم عصره؛ وهو في أغلب الأحوال يُعَدُّ أستاذَ نفسه، لأن أكثر علمِه ينتهى إلى الإلهام، وشدة الملازمة للعلم، وعمق المحبة للمعرفة، مع وعى تام بحاجة

(١) انظر محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، القاهرة- مكتبة وهبة ،١٤١٧-١٩٩٧ ،ص ١٤٣ وما بعدها

(٢) انظر رسائل النور، ج٤، ص ٥٠٩.

الأمة الإسلامية إلى مصلح يجدد لها دينها، في وقتٍ يعد من أحلك الأوقات، التى مرت عليه، حيث تداعت علٍيها الأمم، كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

وفوق هذا، ودون هذا كله، كان الشيخ النورسى صاحبَ بيان وسنان، وصاحبَ قلم يَصْدُر فيما يقول، وفيما يكتب، عن العقل والقلب، عن الدين والدنيا، ولهذا أطلق عليه معاصروه بحقٍ "بديع الزمان".

إن الشيخَ بديعَ الزمان صنعةٌ ربانيةٌ، وروحٌ قدسيةٌ علويةٌ. لقد حمل همومَ أمَّتِه بين جنبيه، ومضى على طريق الأنبياء، والأولياء، والعلماء، والشهداء، ليُثبِّت للإسلام دولته، ويرد إلى المسلمين كرامتهم، وينتشل اليائسين من أبناء هذه الأمة العريقة من الوهاد التى تردوا فيها. ولم يبال هذا الداعية والمربي الهمام بتلك المخاطر التى كانت تتهدد كل من يُذكِّر بعظمة الإسلام، فضلاً عن العمل الشجاع له، لم يبال بالسجن، وقد سُجِن، ولا بالمنفى، وقد نُفِى، كما لم يبال بأعواد المشانق، وقد نُصِبت له عقب حادثة ٣١ مارت ١٣٢٥ رومي (الموافق ٢٢ ربيع الأول ١٣٢٧ هـ) ١٣ نيسان ١٩٠٩م، حيث وجه الإتحاديون له تهمة تحريض الجنود على النظام، وقد ثبتت براءته.

ولتسمع الأجيال الحاضرة التى تترنح، وتكاد تضل طريقها إلى العزة والكرامة، ما قاله المجدد الأعظم الشيخ النورسى في الدفاع عن نفسه، أمام المحكمة العسكرية العرفية، حيث رَمَى بسهام حججه القواطع في نحور قضاته ومعارضيه، قال: "إنني إذ أقف على مشارف عالم البرزخ الذي تدعونه "السجن" منتظرا في محطة الإعدام، القطار الذي يقلني إلى الآخرة، أشجب، وأنقدُ كلَّ ما يجري في المجتمع البشري من أحوال ظالمة غدّارة، فخطابي ليس موجهاً إليكم وحدكم، وإنما أوجهه إلي بني الإنسان كلهم في هذا العصر ... لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد، إلا أنها الآن تعادي الحياة بأكملها...".[٣]

وهذا المخطط نفسه هو الذي كان يُطبّق في الهند، وسائر البلدان الإسلامية التي ابتُلِيَتْ من الداخل، ومن الخارج.

---

٢ رسائل النور٩ / ١٠٨، وانظر أيضا عبد العزيز شهبر: أهل الكتاب والقرآن في ضوء رسائل النور. ضمن بحوث الندوة العلمية الدولية. (الرباط، المغرب في ١٧-١٨ مارس ١٩٩٩. تحت عنوان: جهود سعيد النورسي في تجديد الفكر الإسلامي ، ص ١٧٣-١٧٤، وإحسان قاسم الصالحي : مؤلف رسائل النور ومؤسس جماعة النور.بديع الزمان سعيد النورسي: نظرة عامة عن حياته وآثاره، سوزلر للنشر ١٩٨٧، ص ٤٩ ، ومحسن عبد الحميد : النورسي متكلم العصر الحديث ، سوزلر ١٩٩٥، ص ٥ وما بعدها.

جاء في مجلة "العروة الوثقى" أنه: "لما استقرت أقدامهم- أي الإنجليز- في الهند، وألقوا بها عصاهم، ومُحِيت السلطة التيمورية (نسبة إلى "تيمورلنك" مؤسس دولة المغول في القرن السادس عشر الميلادي) نظروا إلى البلاد نظرة ثانية، فوجدوا فيها خمسين مليونا من المسلمين، كل واحد منهم مجروح الفؤاد بزوال ملكهم العظيم. وهم يتصلون بملايين كثيرة من المسلمين شرقا وغربا وشمالا وجنوبا؛ وأحسوا أنه مادام المسلمين على دينهم، وما دام القرآن يُتلى بينهم، فمحالٌ أن يخلصوا في الخضوع لسلطة أجنبي عنهم، خصوصاً إذا كان هذا الأجنبي قد خطف الملك منهم بالحذيقة والمكر، تحت ستار المحبة والصداقة، فطفقوا- أي الإنجليز- يفتشون بكل وسيلة لتوهين الاعتقاد الإسلامي، وحملوا القسس والرؤساء الروحانين على كتابة الكتب، ونشر الرسائل محشوةً بالطعن في الديانة الإسلامية مفعمة بالشتائم والسباب لصاحب الشريعة- برأه الله مما قالوا- وما قصدهم بذلك إلا توهين عقائد المسلمين وحملهم على التدين بمذهب الإنجليز ...".

ومضت "العروة الوثقى" تحكي عن السياسة العدائية للإنجليز تجاه المسلمين في الهند وتشريدهم للعلماء ونفيهم، واصطناع العملاء والمرتزقة وتجنيدهم لبث الفرقة والترويج للإلحاد والتحلل من الدين.

ومن اللافت للنظر قول صاحب "العروة الوثقى" إن الإلحاد الذى كان يُرَوَّج له فى بلاد المسلمين، كان يعنى التخلي عن الدين وعن الوطن، أما ملاحدة أوربا فإنهم يحبون أوطانهم، ويفتدونها ولا تنقص حميتهم لحفظ بلادهم من عاديات الأجانب.

وقد أدرك الإنجليز حقاً أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية، وما دام الاعتقاد المحمدى والعصبية الملّية فيهم، فلا تُؤْمَن بَعثتهم إلى طلب حقوقهم....

رسائل النور: طبيعتها وآثارها

لقد أفاض الله تعالى على قلب هذا العلامة المجدد رسائلَ النور، لتكون أساساً لدعوته، ونبراساً لرسالته، يهدي بها شباب وطنه إلى التمسك بدينه، والاعتصام بالقرآن، في وجه تلك الهجمات العاتية التي كانت تتوالى عليه، ويرد بها عادية الشك والكفر والإلحاد، والعصبية القومية، والعنصرية، والنفاق السياسى والاجتماعى الذى كان يسيطر على طلاب الدنيا؛ وظل الشيخ يدعو من ضلوا الطريق إلى أن يعودوا إلى معقل الإيمان والتوحيد، وإلى صحيح الاعتقاد والعمل الصالح، وإلى الوحدة الإيمانية والوحدة الإنسانية.

ورسائل النور كما يصفها صاحبها "... ليست طريقةً صوفيةً؛ بل حقيقة، وهي نورٌ مفاضٌ من الآيات القرآنية، ولم تُستق من علوم الشرق، ولا من فنون الغرب؛ بل هي معجزةٌ معنوية للقرآن الكريم، خاصة لهذا الزمان"[٤] ... إنها مرتبطة بالقرآن الكريم مباشرة، والقرآن مرتبط بالعرش الأعظم. إذن فمن ذا يجرؤ أن يمد يده إلى هناك- أي إلى العرش- وأن يحل تلك الحبال القوية"[٥].

ويقول عن أعداء الرسائل: "إن الأصابع التي تحارب رسائل النور من خلف الأستار، هي الأصابع الأجنبية، التي تحاول تحطيم الود، والمحبة، والأخوة التي يُكنها العالم الإسلامي نحو هذه الأمة وكسرها. هذه المحبةُ والأخوة التي تعد أكبر قوة لهذه الأمة، يحاول الأعداء المتَسَتِّرون دائما أن يُفرّقوا بين الحكومات وشعوبها، وأن يفرقوا بين مواطني الشعب الواحد، على جميع المستويات، وعلى جميع الأصعدة، حتى يضمنوا السيادة عليه[٦]. وهذه أكبر المشكلات والتحديات التي لا تزال تواجه الأمة الإسلامية، وتعوق أبناءها عن الوحدة، وعن التكامل فيما بينهم، ويحولون بينهم وبين الاعتماد على النفس".

إنها ليست نوراً مقتبساً وبضاعة مأخوذة من معلومات الشرق وعلومه، ولا من فلسفة الغرب وفنونه؛ بل هي مقتبسة من العرش الرفيع السماوي لمرتبة القرآن الكريم الذي يسمو على الشرق والغرب. لقد تزعزت قلاع الإيمان التقليدية، وتصدعت أمام هجمات هذا العصر الرهيب، ونأت عن الناس، وتسترت بحُجبٍ وأستارٍ، مما يستوجب على كل مؤمن أن يملك إيماناً تحقيقياً قوياً جداً كي يمكنه من المقاومة والثبات تجاه الضلالة المهاجمة هجوماً جماعياً؛ فرسائل النور تؤدي هذه الوظيفة، وفي أحلك الحالات وأرهبها، وفي أحوج الأوقات وأحرجها، وتؤدي خدمتها الإيمانية بأسلوب يفهمه الناس جميعاً، وأثبتت أعمق حقائق القرآن والإيمان وأخفاها ببراهين قوية.

"إن رسائل النور لا تعمر تخريبات جزئية، ولا ترمم بيتاً صغيراً مهدماً، بل تعمر أيضاً تخريبات عامة كلية، وترمم قلعة محيطة عظيمة بصخورها كالجبال تحتضن الإسلام وتحيط به".

---

١ رسائل النور ٢٠٢/٧

٢ المصدر نفسه ٩ / ٣٣٧

٣ المصدر نفسه ٣٩٧/٤ ، و١٧٨/٩، ٢٧٣، ٣٤١

إن كلمات الشيخ النورسى في كليات رسائل النور هى أنفاسه، تختلفُ في درجةِ حرارتها باختلاف الظروف التى قيلت فيها، وباختلاف الحالة التى كان عليها صاحبها. والرسائل، على سعتها، مختصرٌ وافٍ لقصةِ مؤلفها، وشهادته على العصر الذى عاشه بعقله وقلبه وجسمه وحسه. ومن المهم معرفته أن الرسائل تخلو تماماً من أي فكر أو نزعة طائفية. والشيخ النورسى أمةٌ وحده، أمةٌ محاطةٌ بأضلاع بشرية قوية، وسياجات روحية متينة.

إن الرسائل كالنهر المتجدد، أو كالمحيط المتلاطم الأمواج تراه إذ تنظر إليه أو تتصوره قديما جديدا، أو متجدداً على الدوام.

وهى ليست من صنف الكتابات التي تحكمها الظروف والأحوال والمشكلات التى كُتبت في ظلها، وتحت تأثيرها؛ بل هى كتابٌ مفتوح على الزمان والمكان، ومستوعب للقضايا الكبرى والتحديات العظمى التى تواجه الإنسان في كل عصر، وفى كل مكان. إنها تقدم الحلول المطلقة للمشكلات النسبية، والأدوية الناجحة للأمراض العارضة، والأمراض المستوطنة التى يعانى منها الإنسان على هذا الكوكب، مسلما كان أو غير مسلم. وسوف تظل رسائل النور مصدراً للهداية والقوة والنشاط الروحى والأدبى والعلمى العملى، ما بقى الإنسان على هذه الأرض؛ إنها لا تَكْتَسِبُ بمرور الزمان إلا جدةً وجلاء وانتشاراً وازدهارا.

وإن الممعن في قراءة الرسائل يلاحظ أنها لا تخاطب أهل العصر فحسب؛ بل تخاطب الأجيال القادمة كذلك، وتحاول إنقاذهم من الإلحاد والزندقة ومن النفاق السياسى، والانتهازية والنفعية التي تتعاظم وتتفاقم شرورها. لقد أملت حكمة الشيخ عليه أن يتجنب الصدام مع الحكومة، وأن يعتزل السياسة، بالمعنى العملى لها، حتى يمكنه أن ينقذ من استطاع من أبناء الجيل، ومن الذين يلونهم من أبناء المسلمين، فقد انجرف نحو ٥٠% من المسلمين وراء الجديد، وكل ما له زهوة وبريق، وانخدعوا فيه، ولو سار الأمر على هذا المنوال، فإنه، بعد خمسين سنة، ستزيد هذه النسبة إلى ٩٠%، مما سيُوقع البلاد في براثن الفوضى، والضلالة المطلقة، وينتزع الأمة من تاريخها الإسلامى المجيد، وتاريخها النضالى البطولى المشرف.[٧]

---

١ المصدر نفسه ٧/ ٢٤٣

وقد صدقت نبوءة الشيخ عن انتشار الأفكار العلمانية والإلحادية بين شبابنا، كما صدقت نبوءته التي قال فيها: "إن تركيا حبلى بأوروبا، وأوربا حبلى بالإسلام". من هنا تميزت الرسائل بالشفافية واستقراء الحاضر والمستقبل.

الحرية في المنهج النورسي:

لقد عاش الشيخ النورسي حياته كلها يدعو إلى الله الواحد، وإلى قيم الإسلام الخالدة، ويحارب الظلم والجور، والاستبداد الذى كان يخنق الحريات، ويكبل حركات الشعوب الإسلامية، ويغل أيديها عن التقدم، وعن البناء والنهضة.

يرى الإمام بديع الزمان أن الحرية هى قلب الوجود وماهيته التى لا يمكن أن تتبدل أو تتغير. يقول لكل مستبد: "إنه لا يمكن بالظلم والجور محو "الحرية"، اللهم إلا إذا أمكن رفع الإدراك- أى الفهم- من الإنسانية"، وإنه "لا يمكن بالظلم والجور محو "الحقيقة"، اللهم إلا إذا أمكن رفع القلب من الإنسانية"، وإنه "لا يمكن بالظلم والجور محو "الفضيلة"، اللهم إلا إذا أمكن رفع الوجدان أو الإحساس من الإنسانية".

وهو يُنزه الفضيلة المُتَّسِمة بالإيمان عن أن تكون وسيلةً للإكراه وكبت الحريات، أو أن تكون كذلك سببا للاستبداد؛ إذ الإكراه والقسر والتسلط على الآخرين رذيلة، ليس إلا، بل إن أهم مشرب لدى أهل الفضيلة هو الاندماج في المجتمع بالعجز والفقر والتواضع وهذا هو طريق أهل الله، وهذا هو لب الإسلام، وزبدة الإيمان الخالص.

إنه يلفت النظر إلى حقيقة مهمة، وهي أن بعض الناس يتخذون الدين تجارة، ووسيلة إلى قهر الشعوب وإذلالها، وبعضُهم قد يتخذه وسيلةً إلى الاستبداد والتسلط، مستعيناً على ذلك بحواشى المنتفعين والانتهازيين، من أجل ذلك، نراهم يُضيّقون على المصلحين، والجادين في السعى من أجل مصالح البلاد والعباد فيشككون فيهم، ويتهمونهم بأنواع التهم، حتى ينصرفوا عما هم بصدده من إصلاح وتثقيف وتهذيب لأبناء وطنهم؛ وقد يلقون بهم في السجون أو المنفى، كما حدث لشيخنا النورسى، الذى قضى في المنفى تسع سنوات، هذا مع ما صحب ذلك من أسوأ المعاملات والتعذيب.[٨]

لقد أذاقه المتكبرون العنت بتعذيبهم إياه، حتى بلغوا الفرعونية في ذلك، كما يقول هو عن نفسه؛ بل لقد بالغ بعض رجال الدولة وأشياعهم في إيذاء مشاعره، وفى اتهام

---

١ رسائل النور ٢٥٨/٣

نيته على كل حال؛ فقد لاموه حتى على عزلته وابتعاده عن الناس، واعتبروا ذلك تفادياً من الشيخ للانقياد لقوانين الجمهورية؛ بل إنهم حاسبوه على إعجاب الناس وتأثرهم به، وتقبيلهم لِيَدِهِ، على الرغم من تجرده عن المناصب، وجميع مظاهر الحياة الدنيوية.

ويرد الشيخ ياقوت، أحد تلامذته، على هذا التهجم الظالم عليه، من قِبَلِ هؤلاء المستبدين الذين وضعوا أنفسهم فوق القانون، وفوق المساءلة، لمجرد أنهم يشغلون مناصب في الدولة... إنهم حسدوه على حب الناس له، وتأثرهم به، بدرجةٍ لا تُدانيها مكانةَ أهل السلطان ومن بيده النفع والضر الدنيويين.

لقد خرج خصومه على القوانين التى وضعوها، وانتهكوا قانون المساواة، والشيخ شامخٌ لا يحنى رأسه أمام المستكبرين، ولم يتواضع لهم؛ لأن التواضع، في هذا المقام، فيه ذلة للمؤمن. وقد ألَّبوا عليه بعضَ العلماء الرسميين فساموه سوء الاضطهاد والعداء وأهانوه، وهو على هذا النحو من التجرد والبساطة، وذلك لأنهم فهموا خطأً أن السلطة والنفوذ لا يكونان إلا لصاحب السطوة الدنيونية والمناصب الزمنية.[٩]

ما أشبه خصومَ أهل الحق الليلة، بخصومِ أهل الحق البارحة؛ لقد قال أهل مكة عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: "**وقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**" [الزخرف: ٣١]

وما أصدق القائل: "لو يعلم الملوك ما نحن فيه من نعيم لجالدونا عليه بالسيوف"، حقاً، لقد كان الشيخُ النورسي يعيش وسط هذا النعيم الروحانى القدسي، حتى وهو في ظلمة السجن، أو في ضيق المنفى.

العدالة من وجهة نظر الشيخ بديع الزمان النورسي:

العدالةُ عند الشيخ النورسي تعني النظام، والتناسب، والحكمة، والرحمة؛ وتتجلّى أولاً في صفات الله تعالى، وفي أسمائه، ثم في سائر مخلوقاته، وفى الموازين والنِّسَب التى ثَبَّتَها الله تعالى في الكون لضبط الحياة، وتنظيم شئون الأنفس والآفاق. يقول تعالى: "**وإن مِّن شَيْءٍ إلا عِندَنَا خَزَائِنُهُ ومَا نُنَزِّلُهُ إلا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**" [الحجر: ٢١]، "**والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ**" [الحجر: ١٩].

هذه الخزائنُ الربانيةُ الجامعةُ لأصول الأشياء، المادية والمعنوية تعمل طبقاً لنظامٍ محكمٍ، وتقديرٍ عجيبٍ، كلُّ شئ في هذا الكون يقوم على العدل، ولولا العدل لما كان

---

٢ المصدر نفسه ٢٦٣/٣

هذا النظام البديع الذى نراه في الأشياء مفرقة كانت أو مجموعة، ولما استمر هذا الوجود، على الرغم مما يقع فيه من فساد وتدمير على يدي الإنسان.

يُشَبِّه الشيخُ النورسى هذا العالم، بالقصر البديع، الذي تتوالى عليه عواملُ التخريب، من حروب مدمرة، واضطرابات سياسية، وهجرات ظالمة، وإخلالٍ بأمن البلاد، وتشريد للعباد؛ فإنه على الرغم من كل هذه السلبيات، توجد موازنة عامة، كما أن هناك ميزاناً حساساً، وعمليةَ وزن دقيق تسيطر على كل جوانب هذا القصر، ونواحى المدينة، وتسود كل أرجاء المملكة، وأطراف العالم، وتهيمن عليها هيمنةً، بحيث تدل بداهةً، أن ما يحدث ضمن هذه الموجودات التى لا يحصرها العد من تحولات، وما يلج فيها، وما يخرج منها، لا يمكن أن يكون إلا بعمليةِ وزنٍ، وكَيْلٍ، وميزانٍ... من يرى أنحاء الوجود كله في آن واحد؟؟؟ ... ومن تجرى الموجودات جميعا أمام نظر مراقبته في كل حين؟؟... ذلكم الإله الواحد الأحد سبحانه؛ وإلا فلو كانت الأسباب الساعية إلى اختلال التوازن سائبة أو مفوضة إلى المصادفة العشوائية، أو القوة العمياء، أو الطبيعة المظلمة البلهاء، لكانت بويضات سمكة واحدة، والتى تزيد على الألوف، تخل بتلك الموازنة؛ بل بذيرات زهرة واحدة كالخشخاش، والتى تزيد على العشرين ألف، تخل بها ... ناهيك عن تدفق العناصر الجارية كالسيل، والانقلابات الهائلة، والتحولات الضخمة التى تحدث في أرجاء الكون، كل منها لو كان سائباً، لكان قميناً أن يخل بتلك الموازنة الدقيقة، المنصوبة بين الموجودات، ويفسد التوازن الكامل بين أجزاء الكائنات خلال سنة واحدة؛ بل خلال يومٍ واحد، ولكنتَ ترى العالم، وقد حل فيه الهرج والمرج، وتعرّض للاضطرابات والفساد.

ومن منهج بديع الزمان، أنه كان يلتمس المشترك بين الأتراك، ثم بين المسلمين جميعاً، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، أياً كان هذا الإنسان، وكان الشيخ يدعو إلى هذا المشترك، دفعاً للخلافات، والتناحر، والحروب، ويبحث كذلك في بواطن الأنظمة، والدعوات، والنظريات، عن طريق النقل والعقل، فيحذّر مما فيها من مخاطر تتهدد الانسان في دنياه وفي أخراه ... لهذا فقد وقف مواقف صارمة وحكيمة، ضد الإلحاد الذي كان يُرَوَّج له في تركيا، وضد الإباحية، والديكتاتورية، والاستبداد، وقمع الحريات النبيلة، وإطلاق الحريات الهدامة التي تثير الغرائز والشهوات، وتُحَرِّض على الكفر، والإلحاد، وتُشَنِّع على الدين والمتدينين.

وقد تَعَرَّف الشيخُ على الأمراض التي أدَّت بالمسلمين إلى هذه الحالة المزرية من التردي والجمود والتقليد، ومن الفرقة، وإهمال الأخذ بأسباب الوحدة والقوة، في وجه تداعٍ غربي سافرٍ ضدهم.

وعلى الرغم مما حدث ويحدث للمسلمين، فإن الشيخَ لم ييأس، ولم يَدَعْ لليأس سبيلاً إلى نفوس تلامذته ومريديه؛ بل إنه استعان بالصبر والجلَد على تحمل تلك المشاق العقلية والنفسية الرهيبة التي كُتِبَ على المسلمين الصادقين، والعلماء المخلصين أن يَتَحَمّلوها؛ وظل الشيخُ، طوالَ حياته، يدعو المسلمين الصادقين إلى مواجهة الإلحاد والاستبداد، وأن يَصْمُدوا مع العمل والأمل، حتى يأتي نصر الله تعالى الذي وعد به المؤمنين الصادقين "**وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَآ آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**"، "**كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي...**" "**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا...**".

وهكذا ينبغي أن يكون معلوما أن منهج الشيخ النورسي، يخلو من العنف والتطرف، في وقتٍ اشتد فيه العنفُ ضدَّ المسلمين، واشتدت فيه العداوةُ للإسلام. وقد اتسمت المرحلة كلها بالعنف والإرهاب، والملاحقات السرية والعلنية لعلماء المسلمين، وكانت تركيا مهزومةً ومحاصرةً من الداخل والخارج. وكان نشطاء العلمانية، والملاحدة، وأعداء الإسلام والأمة الإسلامية على أشدهم، لا يَرْعَوْنَ في المؤمنين إلاًّ ولا ذِمَّة.[١٠]

وفي التدليل على رفض الشيخ للعنف خياراً منهجياً وحركياً، نشير إلى موقفه من الشيخ "سعيد بيران"، الذي طلب منه أن يتعاون معه في حركته ضد كمال أتاتورك وجمعية الاتحاد والترقي، فرفض الشيخ النورسي، وتنبأ بفشل الحركة.

ومن رسالة الشيخ بديع الزمان إلى الشيخ سعيد، نقتطف هذه العبارات: "نحن مسلمون، والأتراك إخواننا، فلا تجعلوا الأخ يقاتل أخاه، فهذا لا يجوز شرعا، إن السيف لا يشرع إلا بوجه الأعداء الخارجيين، ولا يستعمل السيف في الداخل ... إن السبيل الوحيد أمامنا للخلاص في هذا الزمان هو القيام بإرشاد الناس إلى حقائق القرآن، وإلى حقائق الإيمان، والقيام بمكافحة الجهل الذي هو أكبر أعدائنا. إننى أرى أن تَصْرِفوا النظرَ، لأن محاولتِكم محكومةٌ بالاخفاق، إذ سيهلك الالآف من الرجال والنساء، بسبب حُفنة من القتلة والمجرمين"[١١].

---

١ رسائل النور ، ٤/ ٥١٣ وما بعدها

١ انظر رسائل النور ٣ / ٦٧

لقد كان منهج الشيخ النورسي هو معالجة الجذور، وليس معالجة الفروع، أو الثمار التالفة والمتعفنة. لقد بنى منهجه على التربية الإيمانية والعقلية المستنيرة للشباب ولجميع الأعمار.

يقول الشيخ: "إن الذين يقرءون رسائل النور، ولا سيما من الشباب الواعي، يكتسبون إيماناً قوياً، فيصبحون متدينين تديناً لا يهتز، ولا يتوانى أحدهم في أي تضحية، ويكون محباً لوطنه. وعندما يوجد إيمانٌ صلب، قوياً في أي موضع كان، فلا يكون هناك مجالٌ للسفاهة وللسقوط الأخلاقي الذي يكون نتيجة طبيعية لبعض الأيدلوجيات الضارة. وكلما زاد عددُ المسلمين بهذا الإيمان القوي، ضاق المجالُ أمام توسع الماسونية والشيوعية. إن رسائل النور تقوم- استناداً إلى القرآن الكريم- بالبرهنة على مدى زيف الفلسفة المادية، التي يستند إليها الشيوعيون والملاحدة بشكل عام، وذلك ببراهين وحجج قوية تبرهن على مدى بعدها عن الحق والحقيقية ببراهين عقلية ومنطقية وفكرية، فتنير بذلك أذهان الذين سقطوا في ظلمة هذه الفكرة الفاسدة، وتنقذهم". [١٢]

إن كل شئ في الكون من الذرة إلى المجرة وما يؤديه كل شيء من وظائف، وما له من غايات، وعلاقة جميع الكائنات بعضها ببعض، وتأثير بعضها في بعض، كل ذلك خاضع لميزان العدل والرحمة والعناية. لم يوجد شئ منها بمحض الصدفة أو العشوائية البتة؛ بل أوجدها الإله، الخالق، البارئ، المصور، الحَكَم، العدل، على أدق نظام، وأحكم صنعة، وأعدل تقدير وتدبير.

ويربط الشيخ النورسى بين عمل العدالة الإلهية السائدة في هذا الكون، وبين ظلم الإنسان، بتمرده على هذه السُّنةِ الكونية، وخروجه عليها، يقول: "اعلم أن الاقتصاد، والطهر، والعدالة سفنٌ إلهية جارية في الكون، ودساتير إلهية شاملة، تدور رحى الموجودات عليها، لا يفلت منها شيء، إلا أنت، أيها الإنسان الشقى؛ وأنت بمخالفتك الموجودات كلها في سيرها وفق هذه السفن الشاملة، تلقى النفرة منها، وتغضب عليك وأنت تستحقها. فعلام تستند، وتثير غضب الموجودات كلها عليك، فتقترف الظلم والإسراف، ولا تكترث للموازنة والنظافة..."

"إن العدالة العامة الجارية في الكون، النابعة من التجلى الأعظم لاسم "العدل"، إنما تدبر موازنة عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل"، ويقول أيضا: "ثم انظر

---

٢ رسائل النور ٤/ ٥٨٩

لترى النظام العام يأمر بالعدل في كل شئ، وترى النظام التام ينهى عن الميل في كل شئ". [١٣]

إن عدم تطبيق العدل بين أفراد الأسرة يُضَيّعها، ويُبَدّد شملَها، ويُحوّلها من التراحم إلى القسوة والتحاسد والتباغض، وإن فقدان العدل في المجتمع يُضعف قُواه، ويذهب بهيبته ... والظلمُ هو أبشع أسباب الانحطاط، وأسرعها فتكاً بالأمم.

وقد وُضع الميزان، وأُنْزل الكتاب، يعنى القرآن والكتب السابقة، لتكون بمثابة الموازين للعقل والقلب، ليفرّق الناس على أساسها بين الحق والباطل، والطيب والخبيث، وجُعل الميزانُ لضبط الحقوق والمعائش، وتنظيمِ المعاملات بين البشر على أساس العدل، الذي أمرنا به ربُّنا في أكثر من آية، على سبيل المثال يقول تعالى: "**وأَوْفُوا الكَيْلَ إذَا كِلْتُمْ وزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**" [الاسراء: ٣٥]، "**وزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ**" [الشعراء: ١٨٢]، "**والسَّمَاءَ رَفَعَهَا ووَضَعَ المِيزَانَ(٧) أَلا تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ(٨) وأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالْقِسْطِ ولا تُخْسِرُوا المِيزَانَ**"[الرحمن: ٧: ٩].

والعدالةُ، كما يلاحظ الشيخ بديع الزمان، من حقائق القرآن، ودساتير الإسلام الموغلة بشدة في أعماق الحياة الاجتماعية، وأشدها عراقة وأصالة.. لقد وجدت العدالة الاجتماعية يوم وُجد الإنسان، ونُصِّب خليفةً عن الله في الأرض.

إن إفساد نظام العدالة، أو تعطيل العدل في حياة الناس، فيه إخلالٌ بالهيئة الاجتماعية، وإفساد لها، ولا يقل هذا الإخلال وذلك الفساد عن الإخلال بنظام الكون كله وتشويه صورته[١٤]، وهذا مما نهى الله تعالى عنه: "**وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا...**".

ويلحظ الشيخ ما بين وحدانية الله تعالى وبين العدل والنظام من عَلاَقةٍ، لا تنفك أبداً؛ لأنه إذا تعددت الآلهة، لَزِم وقوعُ الفساد، والخلل، والظلم في الكون .. كما يقول تعالى: "**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**" [الأنبياء: ٢٢]؛ ولأن الكونَ من عمل الإله الواحد العادل القادر الحكيم، فإنه خَرج إلى الوجود على هذا النحو البديع "**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ**" [الملك: ٣]، "إذن فالنظام

---

٣ المصدر نفسه ٤٠٧/٦

١ رسائل النور ٥٢٥/٢- ٥٢٧

الرصين في الكون، والانتظام الرائع في المخلوقات كافة، والموازنة الدقيقة بين الموجودات ...كل ذلك يُظْهِر لنا التَّجلى الأعظم لاسم الله "الحَكَم"، ويشهد شهادة واضحة على الوحدانية".[١٥]

وهذا النظام الذى نراه في الكون، يدل على أن الله خالقُ كلِّ شيء ومدبره، وأنه حكيم عادل؛ وفى سورةِ الفاتحةِ إشارةٌ إلى العدالة والإحسان، وهو ما يَلُوح به اسمه "الرحمن"[١٦]، ويُجْمل صاحبُ الرسائل مقاصدَ القرآن الكريم الأساسية، وعناصره الأصلية في أربعة أمور: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية؛ وكل ما عدا هذه الأربعة من تعاليم القرآن يعد وسائل بالنسبة لهذه المطالب.[١٧]

والحكمةُ تقتضى تحققَ المصلحة، والقصد من وراء الخلق؛ والعدالةُ تعنى عدمَ تضييع الحقوق في الدنيا وفى الآخرة.[١٨] الرحمة والعدل هما جناحا الإسلام وقلبه ومقدمته. والرحمة والعدل لا ينفصلان؛ إذ لا يمكن أن يكون الظالمُ الجائر رحيماً، ولا أن يكون الرحيمُ جائراً أو ظالما. وليست العدالة في إشباع الجسد، وتجويع الروح، أو في إطلاق الشهوات والغرائز باسم الحرية، وإنما تكون في رعاية جوانب الحياة الإنسانية كلها، سواءً بالنسبة للفرد أو بالنسبة للمجتمع.

العدالة في الشريعة الإسلامية وفي التشريعات الوضعية:

والعدل والعدالة لهما المكانة الأسمى، في أدبيات الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى، وذلك بعد الألوهية والربوبية والوحدانية.. إنه لا يخلو جزءٌ من رسائل النور، من عبارة أو إشارة، أو لمحة حول العدل والعدالة. من ذلك ما ذكره الشيخ، على سبيل المثال، في المقارنة بين أدب القرآن، والأدب الأجنبي الغربى؛ إذ قَسَّم الأدبَ إلى ثلاثة ميادين: الحماسة والشهامة، الحسن والعشق، وتصوير الحقيقة والواقع. يقول: "في ميدان الحماسة، من وجهة نظره "فإن الأدب الغربى" لا ينشد الحق؛ بل يلقى شعور الافتتان بالقوة، بتمجيده جور الظالمين وطغيانهم".[١٩]

---

٢ المصدر نفسه ٢/٥٥١
٣ المصدر نفسه ٥/٢٤
١ المصدر نفسه٦ /٧٥
٢ رسائل النور ٧/٧٣
٣ رسائل النور ١ /٨٨٥

وعند كلامه عن جريمة الكفر الكبرى، وبرهنته الناصعة القاطعة على وجود الله تعالى، يقول في الحقيقة الثالثة على وجود الله وحكمته، وكمال إرادته، وسمو صنعته، إنه تعالى: "خلق كل شيء بمنتهى العدالة والميزان، وإنه (سبحانه) يعامل الكل بالحكمة والعدالة، وإن كل ما خلق الله- تعالى- يَسِيرُ وِفْق عدالة وميزان مطلقين". ويقول عن العدالة المطلقة: "غير أن الإنسان الذى يقضى حياةً قصيرةً في هذه الدنيا الغائبة، لا ينال، ولن ينال، حقيقةً مثل هذه العدالة، وإنما تؤخر إلى محكمة كبرى، حيث يقتضى العدالة الحقة أن يلاقى هذا الإنسان الصغير ثوابه وعقابه، لا على أساس صغره؛ بل على أساس ضخامة جنايته، وعلى أساس عظمة مهمته... وحيث إن هذه الدنيا العابرة بعيدةٌ كل البعد عن أن تكون مَحلاً لمثل هذه العدالة والحكمة، بما يخص هذا الإنسان المخلوق لحياة أبدية، فلا بد من جنة أبدية، ومن جهنم دائمة، للعادل الجليل، وللحكيم الجميل ذى الجلال".[٢٠]

نلاحظ الربط بين الحكمة والعدالة في كلام الشيخ، لأن الظالم إنسانٌ غيرُ حكيم، لا يُقَدِّر عواقبَ ظلمه؛ إذ إنه متجردٌ من الرحمة، ومتجردٌ كذلك من الحكمة، لذلك تجده يتجرأ على ظلم عباد الله عز وجل؛ ولو أخذه تعالى بظلمه لعاجله في الدنيا بالعقوبة التي يستحقها، يقول تعالى "**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ ولَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ**" [النحل: ٦١].

ويرى النورسى أن العدالة في الخلق- والتى نراها ماثلةً أمامنا في كل شيء- إنما هى دليل على وجود المحكمة الكبرى التى يتحقق فيها العدل المطلق، والعدالة الكاملة، إن ما نراه من عدل في المخلوقات، يثبت بلا شك حقيقة الدار الآخرة، التى تنصب فيها موازين العدالة، التى توزن بها الأعمال بالقسطاس المستقيم.[٢١]

ويضع الشيخ النورسى الحكمة والعناية والرحمة والعدالة في سياق واحدٍ، مستدلاً بها جميعا على وجود الله تعالى، وذلك من خلال ما أودع الله تعالى في هذا العالم من بديع الصنع، ومحكم التدبير والتنويع، في الخلق والأخلاق، وعلى وجود العالم الآخر، الأكمل والأجمل والأبقى، من هذا العالم الحاضر الذى تدهشنا صنعته، ويهولنا تركيبه وسعته، ولا نزال عاجزين عن معرفة كنه أسراره.

---

٤ نفسه ١/٦٩-٧٠

١ نفسه ١/٥٧

"فالمدنية الحاضرة تؤمن بفلسفتها: أن ركيزة الحياة الاجتماعية البشرية هي "القوة"، وهي تستهدف "المنفعة" في كل شيء، وتتخذ "الصراع" دستوراً للحياة. وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات، وغايتها هي "لهو عابث" لإشباع رغبات الأهواء، وميول النفس التي من شأنها تزييد جموح النفس وإثارة الهوى. ومن المعلوم أن شأن "القوة" هو "التجاوز" وشأن "المنفعة" هو "التزاحم"، إذ هي لا تفي بحاجات الجميع، وتلبية رغباتهم، وشأن "الصراع" هو "التصادم"، وشأن "العنصرية" هو "التجاوز" حيث تَكْبُر بابتلاع غيرها؛ فهذه الدساتير والأسس التي تستند إليها هذه المدنية الحاضرة هي التي جعلتها عاجزة- مع محاسنها- عن أن تمنح سوى عشرين بالمائة (٢٠%) من البشر سعادة ظاهرية، بينما ألقت البقية إلى شقاء وتعاسة وقلق".

ويضيف: "أما حكمة القرآن فهي تقبل "الحق" نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من "القوة" وتجعل "رضا الله، ونيل الفضائل" هو الغاية والهدف، بدلا من "المنفعة"، وتتخذ دستور "التعاون" أساساً في الحياة، بدلاً من دستور "الصراع"، وتلتزم رابطة "الدين"، والصنف (النوع)، والوطن، لربط فئات الجماعات، بدلا من "العنصرية"، و"القومية السلبية"... وتجعل غاياتها "الحد من تجاوز النفس الأمارة، ودفع الروح إلى معالي الأمور، وتطمين مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال، والمثل العليا لجعل الإنسان إنسانا حقا".

"إن شأن الحق هو "الاتفاق"، وشأن الفضيلة هو "التساند"، وشأن "التعاون" هو "إغاثة كُلٍّ للآخر" وشأن "الدين" هو "الأخوة والتكاتف"، وشأن "إلجام النفس وكبح جماحها وإطلاق الروح وحثها نحو الكمال" هو "سعادة الدارين"... وهكذا غُلِبَت المدنية الحاضرة أمام القرآن مع ما أخذت من محاسن من الأديان السابقة ومن القرآن الكريم..."[٢٢]

ويرى الشيخ- انطلاقا من قواعد دينية راسخة في إشاعة العدل، والأمن بين الناس- أن دساتير القرآن الكريم عمليةٌ وباقية وماضية في حكمها؛ لأنها آتيةٌ من الأزل، من الخالق الحكيم الذي يعتني بخلقه، دون تفرقة أو تمييز.

ويقول: "إن المدنية بكل جمعياتها الخيرية وأنظمتها الصارمة ونظمها الجبارة، ومؤسساتها التربوية الأخلاقية لم تستطع أن تعارض مسألتين من القرآن الكريم؛ بل

---

١ رسائل النور ١ / ٤٧٢- ٤٧٣

انهارت أمامهما، وهي في قوله تعالى: "**وَآتُوا الزَّكَاةَ**" [البقرة: ٤٣]، وقوله: "**وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا..**".[البقرة ٢٧٥]".

وقد أحلَّ الله التجارة، وشرع لها، وحرَّم الربا وحذر منه لما فيه من استغلال لجهود الآخرين، واستعلاء المستعلين الذين تراكمت ثرواتهم على حساب المستضعفين، أفراداً كانوا أو دولاً. لذلك فإن من أكبر أسباب البلاء في العالم كله هو التمييز الطبقي، والظلم الاجتماعي الناتج عن وجود تلك الفوارق الهائلة بين الأغنياء والفقراء، وكذلك الظلم والفساد وسائر الأمراض الاجتماعية الأخرى.

ويرى الشيخ أن الحضارة المادية الغربية شعارها "إن شبِعتُ فلا عليَّ أن يموت غيري من الجوع"، "اكتسب أنت لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا"؛ من أجل هذا ظهر الصراع في أوروبا بين العمال وأصحاب رأس المال، وانطلق المستعمرون نحو بلاد المسلين ليستحوذوا على ثرواتهم، ويحتلوا أراضيهم بالقوة، ويستعبدونهم.

أما في الإسلام فإن الله- تعالى- يعالج أمراضَ الشح والأنانية عن طريق الزكاة، التي هي، في حد ذاتها، تزكيةٌ للنفس والمال، كما أنها أساسُ التكافل والعدالة، وتهذيبُ الضمير، يقول تعالى: "**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**" [التوبة ١٠٣]، ويقول تعالى: "**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**..." [الحشر: ٩]؛ بل إن سياسة المال في الإسلام تقوم على أساس تداول الثروة، وحركة المال، يقول الله تعالى: "**كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ**...". وعن أبي عبد الله جعفر الصادق، في الزكاة، قال: "تعطيه- أي الفقير- من الزكاة ما يغنيه". وعنه أيضا قوله: "إن من أشد ما افترض الله على خلقه ثلاثا: إنصاف المؤمن من نفسه، حتى لا يرضى لأخيه من نفسه إلا بما يرضى لنفسه منه؛ ومواساة الأخ في المال"[٢٣].

إن سلبياتِ الحضارة الحديثة كثيرةٌ، ومن أهمها التوتر الذي يسيطر على العالم بسبب تكدس الثروة في يد الغرب. إذ أن حوالي ٨٥% منها في أيديهم، وهم يمثلون حوالي ٢٠% من مجموع سكان العالم... بينما نجد الفقر، والمرض، والأمية، من نصيب أغلبية سكان العالم، ونجد الإفراط في استعمال القوة ضد المستضعفين- ولا سيما المسلمين- واحتلال أراضي الغير بالقوة، والتذرع في ذلك بتبريرات واهية؛

---

٢ وسائل الشيعة ، ٦/ ٣١٢ ، وأيضا السيد خسرو شاه- حول علم المقاصد الشرعية وبعض أمثلته. ضمن بحوث مقاصد الشريعة الإسلامية ، دراسات في قضايا المنهج ومجالات التطبيق بتحرير محمد سليم العوا.

ونجد العولمة، والعنف الثقافى العنصرى، وازدواجية المعايير، والكيل بمكيالين، والخروج عن الشرعية الدولية، وازدراء قرارات الأمم المتحدة من قبل الولايات المتحدة، ومقولة صراع الحضارات... كل ذلك يعمل ضد بلدان العالم الإسلامي بالدرجة الأولى...

ومن المعروف أن الإيمان بالصراع يمثل الركيزة الأساسية من ركائز الحضارة الغربية بشكل عام، إلا أنه ظهر بشكل أكثر حدة وإغراء بالعدوان على يد "صمويل هانتنجتون"، ومن هذا القبيل مقولة "نهاية التاريخ" لـ"فرانسيس فوكوياما"، وغير ذلك من مقولات عنصرية استعلائية، وآراء ظهرت آثارها المدمرة في السياسية الأمريكية التي تنتهجها ضد بلدان العالم الإسلامي.

يمضي الشيخ في حديثه عن العدالة، فيذكر أن هذه الكائنات فائقة الحصر والتقدير "على الرغم مما يرى من اختلاف بعضها عن البعض الآخر صورة ونوعا، فإنها تتشابه في الانتظام، والإبداع، وإبراز قدرة الصانع وحكمته".. إن في كل شيء له آية ظاهرة تدل على العناية والعدالة والرحمة الإلهية.[٢٤]

وللعدالة شقان، أحدهما إيجابى، والآخر سلبى. أما الإيجابى فهو إعطاء كل ذى حق حقه؛ وإعطاء كل شيء ما يناسبه، ويتحقق به وجوده، وذلك بحسب استعداداته أو حاجاته الفطرية. أما الشق السلبى. فهو تأديب غير المحقين، أى إحقاق الحق بإنزاله العقاب والعذاب عليهم في الدنيا وفى الآخرة سواء كانت العقوبة شرعية، أو قانونية، أو إلهية كما عاقب الله تعالى مجرمى البشر بأنواع العقوبات المختلفة في الدنيا هذا فضلا عن عذابه لهم في الدار الآخرة.[٢٥]

ومن واقع إيمانه الجازم بالدار الآخرة، وبقدرة الله وحكمته ورحمته وعنايته بخلقه، وعدالته في خلقه، يربط الشيخ النورسى دائما، في كليات رسائله، بين عالم الدنيا وعالم الآخرة، متخذاً من وجود الله تعالى، ووجود هذا العالم دليلا لا ينازِع، ولا يقاطع على وجود الدار الآخرة، بما فيها من حساب وثواب وعقاب؛ لأن العدالةَ لا بد أن تتحقق كاملة. فإذا فات الظالم أن يُعاقَب في هذه الدنيا، فإنه لن يفلت من عذاب الآخرة، وهو عذابٌ أبدي لا خروج منه، ولا تخفيف فيه؛ لأنه لا يُعقل أن "يظل الإنسان دون جزاء في هذه الدنيا، على ما يرتكبه من وقائع الظلم، وما يقترفه من إنكار

---

١ رسائل ٩٠/١

٢ المصدر نفسه ٩١/١

وكفر وعصيان تجاه مولاه الذى أنعم عليه ورَبّاه برأفة كاملة، وشفقة تامة، مما ينافى نظام الكون المنسق، ويخالف العدالة والموازنة الكاملة، التى فيها سرّ وجود الله تعالى، ويخالف جماله وحسنه، إذ يقضى الظالم القاسى حياته براحة، بينما المظلوم البائس يقضيها بشظفٍ من العيش؛ فلا شك أن ماهية تلك العدالة المطلقة- التى يشاهَد آثارها في الكائنات لا تقبل أبداً، ولا ترضى مطلقاً عدم بعث الظالمين العتاة مع المظلومين البائسين الذين يتساوون معاً أمام الموت"[٢٦].

ويبني الشيخ على ذلك أن الظلمَ خروج عن منهج الله الذى أودعه عز وجل في الكائنات، وأرسل به الأنبياء ونصب له الأولياء، والعلماء، وشرع الأحكام لمناهضته. والظالمُ متمردٌ على قوانين الطبيعة التى أودعها الله تعالى فيها، ومتمردٌ كذلك على تعاليم السماء، ومنهج الأنبياء، وعلى روعة الفطرة وجلال الحق. ولا شيء أقبحُ عند الله من الظلم، حتى أن الكفر-نفسه- يُعَدّ نوعاً منه.

والعدالةُ لا تنفصل عن الدين، ولا عن نظام الكون والوجود الإنساني، ولا تنفصل عن عالم الروح، ولا تقبل الازدواجية أو العنصرية أو الانتقائية. والعدالةُ في الإسلام لا تجعل الفرد فوق المجموع، ولا تعطي القوي وتمنع الضعيف؛ لأنها تنظر إلى الناس جميعاً من جهة الخلق ومطالب الحياة، مع ترتيب الأفضلية على التقوى والعمل الصالح، يقول الله تعالى: "**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**" ويقول الرسول- صلى الله عليه وسلم-: "**الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأبيض على أسود، إلا بالتقوى والعمل الصالح، كلكم لآدم، وآدم من تراب.**".

والعدالة في الإسلام لا تفرق بين مسلم، وبين غير مسلم في الحقوق والواجبات المشتركة، يقول النبي- صلى الله عليه وسلم-: "**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**"، و"**إن اليهود مع المسلمين أمة واحدة**" إلى آخر ما جاء في وثيقة المدينة المنورة في شأن اليهود.

يقول بديع الزمان، من خلال كلامه عن نبى الله سليمان "المساواة ليست في الفضيلة والشرف؛ بل هي في الحقوق. فسلطانُ الملك والفقير المسكين كلاهما سيان في الحقوق... فيا للعجب!! إن الشريعة التي نهت عن تعذيب نَملة، وأمرت ألا تُداس عمداً، تُهمل حقوق بني آدم؟! كلا! ولكننا نحن الذين لم نمتثل الشريعة". ويزين الشيخ

---

١ المصدر نفسه ١١٢/١

كلامه بما ورد في التاريخ الإسلامي من محاكمة أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب مع يهودي فقير، ومرافعة صلاح الدين الأيوبي مع نصراني مسكين.[٢٧]

ويوجه الشيخ النورسى هذا النداء إلى الحكام قائلاً: "أيها الحكام! ويا من تسلَّمْتم أمر البلاد! إن كنتم تريدون أن تسود العدالة أنحاء مملكتكم، فاقتدوا بسليمان- عليه السلام- واسْعَوْا مثله إلى مشاهدة ما يجرى في الأرض كافة، ومعرفة ما يحدث في جميع أرجائها، فالحاكمُ العادل الذى يتطلع إلى بسط راية العدالة في ربوع البلاد، والسلطانُ الذى يرعى شئون مملكته، ويشفق عليهم، لا يضل إلى مبتغاه، إلا إذا استطاع الاطلاع- متى شاء- على أقطار مملكته، وعندئذ تعم العدالة حقا، وينقذ نفسه من المحاسبة والتبعات المعنوية".[٢٨]

يتخذ الشيخ بديع الزمان من نبي الله سليمان- عليه السلام- نموذجا للحاكم الصالح، الذى كان مُلمًّا بشئون مملكته، من الإنس والطير والحيوان، متيقظاً لما يجرى من حوله، محافظاً على هيبة دولته، ساهراً على حراستها؛ لقد جمع- عليه السلام- في مُلكه بين الدين والدولة، بين القوة والأخلاق، وبنى مملكته على أساس العلم والعدل، وكل القيم الفاضلة.

هذا نموذجٌ للحاكم العادل الصالح، قدّمه الله تعالى للبشر، لكي ينتفعوا به، لا ليكرروا قصته كالببغاوات، وقد بلغ هذا النموذج في الحكم كماله، ببعثة النبى محمد- صلى الله عليه وسلم- الذى بنى الدولة الدينية المدنية، التى اتسعت للمسلمين وغير المسلمين، وحققت- بسبب قيامها على العدل، والرحمة، والحكمةن والتسامح، في الزمن القصير- ما لم يحققه أيُّ نظامٍ في العالم إلى اليوم، في الآماد البعيدة، لذلك فإن الإسلام ينبغى ألا يُدرس من خلال تعاليمه و أحكامه وتكاليفه الشرعية فحسب، بل من خلال سيرته الأخلاقية والحضارية والعلمية الرائدة أيضاً.

نموذج من عدالة الشريعة الإسلامية في الميراث:

يتناول الشيخ النورسى، في إطار كليات العدالة، هذه المسألة، في التدليل على عدالة الشريعة الإسلامية، إذا ما قورنت بالشرائع الأخرى، وبالقوانين الوضعية المادية، فنظرةُ أصحاب المدنية الحديثة إلى توزيع الثروة، وترتيب الحقوق المدنية على أساس

---

١ المصدر نفسه ٣٩٨/٨- ٣٩٩ وما بعدها.

٣ نفسه ٨/ ٢٨٤-٢٨٥

الفردية الطاغية والمادية الصرفة، والإشباع الشهواني، فيها ظلمٌ وإجحافٌ للإنسان؛ وذلك لمخالفتها لأحكام القرآن التي تراعي الجوانب المادية، والجوانب الروحية في تشريعاتها، وتأخذ في حسابها العلاقات الانسانية والمجتمعية، وذلك حفاظا على استقرار الأسرة، والمجتمعات، على أساس العدل والوسطية، وهذه هي غاية التشريع الإسلامي.

يشير الشيخ إلى قوله تعالى: "**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ ولَدٌ ولَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا ولَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً ونِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا واللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**" [النساء: ١٧٦] ثم يقول: "إن هذا الحكم القرآنى هو محض العدالة، وعَيْنُ الرحمة في الوقت نفسه، وذلك لأن الرجلَ الذى ينكح امراة يتكفل بنفقتها مدى حياتها، وهكذا تُعَوّض عما نقصها في الإرث؛ وهذا الحكم القرآنى رحمة، لأنه ينظر إلى الأنثى على أنها ضعيفة بالنسبة للرجل، وتحتاج إلى شفقة والدها وعطفه، وإلى رحمة أخيها ورأفته بها؛ وحصولُ المرأة على النصف من ميراث الرجل يُذهب بكثير من الخوف أن تذهب ثروة الأب إلى الأجانب والأغيار؛ ويعظم خلق الرحمة والود والتواصل في نفوس الأبناء ويذهب بالحق والكدر من قلوبهم".

وفي هذا الإطار يشير بديع الزمان إلى نصيب الأم في تركة ابنها كما جاء في قوله تعالى: **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وإِن كَانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ولأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ ولَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ ولَدٌ ووَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً**" [النساء:١١]. فالإسلام إذن يعطى للأم حقا في مال ابنها المتوفى، جزاءاً لها على ما تعبت في الحمل والرضاع والتربية، وعلى ما ضحت به من أجل أولادها، وتثبيتا لعلاقات الرحمة والتواصل بين الناس، وبالأخص ذوي الأرحام منهم؛ وليس هذا في المال فحسب؛ بل في كل ما يستوجب حق الشكر والعرفان للأم.[٢٩]

إن الإسلام يَعُدُّ المال قوام الحياة والطاقة التى تولد الحركة في المجتمع لذلك أمر الله تعالى بالكسب المشروع، وبالإنفاق المشروع، وجعل الإسلام في المال حقاً

---

١ المصدر نفسه ٢ / ٤٨ ، ٤٩

للفقراء والمحتاجين، ولكل من نزلت به نازلة أو وقع له حادث، ولكل من وقع في الرق، أو كان غارماً، بسبب الصلح بين الناس؛ وقد شرع الإسلام الميراث ضمن تدابيره المالية حتى لا يكون المال دُولَةً بين الأغنياء، وحتى لا تموت أطراف المجتمع وحواشيه، ومعظمها من الطبقة أو الفئة العاملة المنتجة في المجتمع.

وعلى الرغم مما قدمه الإسلام للمرأة من حقوق دينية ومدنية كثيرة سبقت بها المرأةُ المسلمة مثيلتها في العالم كله، فإن خصوم الإسلام في الغرب يهاجمون التشريع الإسلامي، لأنه يعطى للمرأة نصف ما يعطيه للرجل في الميراث؛ ويكثف أعداءُ الإسلام حملاتِهم ضد هذا الدين، في كتاباتهم ومؤتمراتهم، وخطاباتهم المختلفة، ويطالبون الحكومات الإسلامية حثيثاً، وربما تهديداً، بِسَنِّ التشريعات التي تنص على مساواة المرأة بالرجل في الميراث، وفي كل شيء؛ وبالتالى فهم يريدون منّا أن نعطل، أو نلغي نصاً صريحاً في القرآن؛ بل ونلغي الشريعة الإسلامية كلها، ونتبنى نظاماً وضعياً غريبا عنّا، لا يراعى طبيعة المجتمع، أو الأسرة واستقرارها، بل يسعى إلى تفتيتها وتفكيكها، وإلى زعزعة كيانها، وبخاصة وأن الأسرة هي الخلية الأولى للمجتمع، بفسادها يفسد المجتمع، وبصلاحها يصلح المجتمع. والتفتيتُ الأسري، وارتفاعُ معدلات الجريمة، وازديادُ عدد اللقطاء، وأطفالِ الشوارع يُشاهَدُ بجلاءٍ في الغرب اليوم[٣٠]، وذلك نتيجةً لهذه المساواة المزعومة التي، على الرغم من ذلك، لم تتحقق في الغرب، إذ لا تزال المرأة مظلومة ومهضومة.

يقول الشيخ بديع الزمان: "إن المدنية التي لا تتحاكم إلى المنطق العقلي تنتقد الآية الكريمة: "**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ...**" التي تمنح النساء الثلث (أى للأم فى حالة عدم وجود ولد) من الميراث ومن البديهي أن أغلب الاحكام في الحياة الاجتماعية إنما تُسَنُّ حسب الأكثرية من الناس، فغالبيةُ النساء يجدون أزواجا يعيلوهن ويحموهن؛ بينما الكثير من الرجال مضطرون إلى إعالة زوجاتهن، وتحمّل نفقاتهن فإذا ما أَخَذَتِ الأنثى نصف ما أخذه الذكر، فإن زوجها سيسد حاجاتها، بينما إذا أخذ الرجل حظين من أبيه، فإنه سينفق قسطا منه على زوجته، وبذلك تحصل المساواة، ويكون الرجل مساويا لأخته. وهكذا تقتضي العدالة القرآنية.

---

٢ انظر كتابنا عن المرأة

قال الشيخ الإمام هذه العبارات القاطعة أمام محكمة التمييز التي كانت تحاكمه على آرائه التي تخالف العلمانية. وأضاف الشيخ إن هذا التفسير الذي قدمه للمحكمة يحتكم إليه ثلاثمائة وخمسون ألف مفسر، ودان به أجدادنا لمدة ١٣٥٠ عاما.[٣١]

لقد جعل الإسلام المرأة شقيقة الرجل، ومساوية له في كل شيء، إلا ما استثناها الله تعالى منه، لا بسبب تمييز الرجل عليها، وإنما لموافقة ذلك لطبيعتها التي خلقها الله عليها، واتساقاً مع الوظائف المنوطة بها في الحياة؛ بل إن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال في حديث له: "**ولو كنت مفضلا أحدا على أحد لفضلت النساء**"، ويقول- صلى الله عليه وسلم- أيضا: "**من كانت له أنثى فلم يئدها** (يدفنها حية) **ولم يُهِنْها، ولم يُؤْثِر ولده الذكور**(أي يفضلهم) **عليها أدخله الله الجنة**" [رواه أبو داود والحاكم].

وينبغي أن يكون معلوماً أنه فيما دون الميراث تكون التسوية بين الذكر والأنثى من الذرية من ألزم الواجبات الواقعة على الوالدين، بما في ذلك التسوية في التعبير عن المشاعر تجاههم. ومما كرم الله تعالى به المرأة أن جعل لها ذمة ماليةً مستقلةً عن الرجل، ولها نسبةٌ محددةٌ في الميراث، بعد أن كانت كل الشرائع، والأنظمة السابقة، واللاحقة تحرمها من هذا الحق؛ بل إنه في بعض الأنظمة لم تكن المرأة تعدو أن تكون تراثاً يرثه الأقوياء، في عنفٍ وإذلالٍ لها، وتَنَكُّر كامل لإنسانيتها، وإنه مما ينبغي التنويه به في معرض الكلام عن تقسيم الميراث، أنه إذا كان الإسلام، قد نص على أن للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن هناك حالات ميراثية كثيرة يكون نصيب المرأة فيها إما مساوياً للرجل، أو أكثر منه؛ غير أن المقام لا يتسع للتفصيل فيها. ويكفي أن نعلم أن الله شرَّع لميراث المرأة في سورةٍ تحمل اسم "النساء" وفي ذلك تكريم لهن، وهذه السورة فيها تحذيرٌ شديدٌ من أن تُظلم المرأة، يقول الله تعالى: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**".

الحروب الظالمة ضد الإسلام والمسلمين، وتحليل شخصية المستبد:

يرى الشيخ النورسى- كما يتبين من رسائله بشكل عام- أن الحروب التى شنها الغربُ ضد العالم الإسلامي، والانقلابات التي يسعى لإحداثها، كلها شرٌّ لا خير فيه، ولا سيما الحرب العالمية الأولى التي انجرّت إليها تركيا لصالح الحلفاء، فإنها تعد

١ رسائل النور ١/ ٤٧٥

حرباً ظالمة، أهلكت، ودمرت، وأتت على الأخضر واليابس، ليس لأجل إحقاق الحق، وإرساء الحقيقة، ولا لأجل إعلاء شأن الدين، وإقرار العدالة؛ بل إنها كانت تستند إلى العناد، والعصبية القومية، والمصلحة النوعية، وإشباع أنانية النفس، فترتكب مظالم شنيعة، ومآسى أليمة لم يُر مثيلها في العالم. والدليل على ذلك، إفناءُ الأبرياء من أطفال، وعوائل، وشيوخ، ومرضى بالقنابل المدمرة، بحجة وجود جنديٍ أو اثنين من جنود الأعداء فيما بينهم، واتفاق أعتى المستبدين من البرجوازيين مع الفوضويين والإرهابيين الذين هم المتطرفون من الاشتراكيين والشيوعيين، وإهدار دماء ألوف، بل ملايين من الأبرياء.. والاستمرار في هذه الحرب الضارة للإنسانية جمعاء... ورد الصلح والسلام.. لذا فإن الإسلام والقرآن الكريم بريئان بلا شك من مثل هذه الحروب المدمرة، التى لا تنسجم مع أى قانون كان من قوانين العدالة، ولا مع الإنسانية، ولا مع أى دستور كان من دساتير الحقيقة وقوانين الحقوق، ولا يتنازلان ولا يتذللان (أى الإسلام والقرآن) لمعاونة أولئك، لأن فرعونية رهيبة، ومصلحية عجيبة تستحوذان عليهم، بحيث لا يمدون يد العون إلى القرآن والإسلام، بل يحاولون جعلهما آلتين طيعتين في سبيل مآربهم".

"فلا شك أن أحقية القرآن تأبى الاستناد إلى سيوف ظالمين كهؤلاء؛ بل الفرض على أهل القرآن، والواجب عليهم الاستناد إلى قدرة رب العالمين ورحمته، بدلاً من الاستناد إلى قوةٍ عُجِنت بدماء ملايين الأبرياء".

ويواصل الشيخ الإمام تحليله لانحياز تركيا إلى انجلترا في الحرب العالمية الأولى التي كانت ضد مصالح الشعب التركى المسلم، فيقول إنه كان في الباطن انحياز الإلحاد إلى إحدى القوتين المتصارعتين من أجل التَقَوّي بهم، للتوصل إلى الأغراض المبيتة، وهى أغراضٌ عدائيةٌ للدين والمتدينين، وقد جرَّت هذه الحروب الويلَ والخرابَ على العالم الإسلامي، ومزقته شرَّ ممزق، ولا تزال آثارُها الخطيرة تعمل بين المسلمين[٣٢].

ومن خلال تحليله لشخصية المستبد، يربط الشيخ النورسى بين شخصية المسيح الدجال أو السفيانى، الذى هو دجال المسلمين، وبين شخصية المستبد الطاغية. يجمل صاحب رسائل النور السمات المشتركة بين الدجال والطاغية فيما التالي:

---

١ رسائل النور ٢٠٣/٧

إنه كما يغرى الدجال بالملاذِّ، ومواقع الشهوات، فإن الدجال الكبير يقوم بإغواء من الشيطان وبنفوذه، فيرفع قِسْمًا من أحكام شريعة عيسى عليه السلام، فيُخِلّ بالروابط التى بها تُدار الحياة الاجتماعية لأهل هذا الدين أو ذاك، فيمهد الأوضاع للفوضى والإرهاب ومجيء يأجوج ومأجوج؛ وكذلك السفيانى، الذى هو دجال المسلمين يسعى لرفع قِسْمٍ من الأحكام الخالدة للشريعة المحمدية- على صاحبها الصلاةُ والسلامُ- بدسائس النفس الأمارة بالسوء، وبمعاونة الشيطان؛ فيخل بالروابط المادية والمعنوية للبشرية، ويُطلق النفوس الحائرة المتعصبة في جهل وعنف من عقالها لتتيه بفجرٍ كاذب، وتظل ضائعة شاردة... هذا الدجال الطاغية يعمل بإصرار على تمزيق العُرى النورانية التى تربط أفراد المجتمع الإنسانى كالاحترام والمحبة، ويُكره الناس على حريةٍ، هى عين الاستبداد، لتتصارع النفوس الضالة في مستنقع الأهواء والرذيلة، فاتحاً الطريق إلى إرهاب شنيع، وفوضى رهيبة، بحيث لا يمكن- في ذلك الوقت، أن ينضبط أولئك الناس إلا باستبدادٍ في منتهى الشدة والقسوة؛ وهذا هو الذى يعانى منه العالم اليوم، حيث كثر الفساد، وشاع الإرهاب، والنهب، والسلب، وكثرت القوانين الصارمة بحجة محاربة الإرهاب، حتى أن الناس في جميع المجتمعات يعانون اليوم من قسوة الاستبداد، استبداد الأفراد، واستبداد الأنظمة، واستبداد القُوى العظمى التي تمارسه ضد القوى المستضعفة.

مما ينبغي أن نلفت إليه النظر أنه منذ سقوط الخلافة الإسلامية، والارهاب ينظم نفسه، ويتعاظم خطرُه ضد الإسلام والمسلمين، حيث يحاول، من خلاله، أصحابُ القوة والنفوذ، أن يسيطروا على العالم الإسلامي، بل وعلى العالم كله[٣٣].. بحجة الحرب على الإرهاب الذي وصموا به الإسلام والمسلمين ظلماً وعدواناً.

ونضيف إن أمريكا كانت تعلن عندما خططت لضرب فيتنام أنها تخوض حرباً صليبية مقدسة من أجل الحرية، وللقضاء على الشيوعية، ولكن أمريكا قد مُنيت بهزيمة مخجلة ومذلة، واليوم يرفعون الشعار نفسه في حربهم على الإسلام، تحت مسمى "الحرب على الإرهاب".

ومَعْلَمٌ آخر من معالم "الشخصية المستبدة" من وجهة النظر النورسية، يتمثل فى الأعمال الكثيرة التى تُنْسَب إلى المستبد، والتي تدفع إلى التخريب، وإثارة النعرة

---

١ انظر نعوم تشومسكي. إرهاب القراصنة وإرهاب الأباطرة قديما وحديثا ، تعريب: أحمد عبد الوهاب ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٤٢٥ ، ص ١٣١ وما بعدها.

المدمرة؛ ومن طبيعة المستبد أنه ينسب كل نجاحٍ ومكسب إلى نفسه، وينسب الفشل، والسلبية، والخسائر، إلى غيره، وبعبارةٍ أخرى، فإن المستبد يدّعي الأعمال الإيجابية، والإنجازات لنفسه، وينسب السلبيات والخسارات والأخطاء إلى شعبه المسكين المقهور... إن الرعية بالنسبة للمستبد إنما تُتّخذ وسيلةً لرعاية مصالح الخاصة، أما مصالح الرعية، فإنها لا تعدوا أن تكون مجردَ كلمات وتصريحات جوفاء، ووعود براقة، ومن ثَمّ تصبح الرعية تابعة وضحية للآراء الهشة، والطموحات الزائفة التي هي طُعمة المتطلعين للمجد بغير أسبابه.

لقد كان الهدف الأسمى للشيخ النورسى أن يحمى الإيمان وأهله، من عادية أعداءِ الدين والمتدينين، وأن يُظْهِر أن للإيمان قوةً وقدرةً على المقاومة لا تُقْهَر، وأن بناءَ الدين ليس متداعيا أو هَشًّا، بحيث يسقط من أول ضربة، وينتهى أمره- كما يتوهم أعداء الدين.

يقول "إننا نسعى بما أوتينا من قوة لإقامة سدٍّ قرآنى، شبيهٍ بسد ذى القرنين أمام الفوضى والإرهاب، فالذين يتعرضون لنا إنما يهيئون الأوساط، ويمهدون السبيل للفوضى والشيوعية".[٣٤]

من أجل ذلك تحمل الشيخ السجن والنفى، وكل صنوف التحقير والازدراء التى كانت تنفث بها صدور الحانقين عليه، وعلى الإسلام وأهله.

وعندما سئل الشيخ عما كان يعانيه من الآم نتيجة المصائب والهزائم التي لحقت بالدولة العثمانية، وكان ذلك في عام ١٣٢٧هـ/١٩١٩م أجاب: "إنني أستطيع أن أتحمل كل آلامي الشخصية، ولكن آلام الأمة الإسلامية سحقتني. إنني أشعر بأن الطعنات التي وجهت للعالم الإسلامي وُجِّهت إلى قلبي أولاً، ولهذا تروني مسحوقَ الفؤاد، ولكني أرى نورا سَيُنْسِينَا هذه الأيام الحالكة بإذن الله[٣٥].

لقد ذكرني كلام الإمام المجدد بديع الزمان بكلمة قُلتها لطلابي فى إحدى كليات جامعة لندن، وكنت أدرّس لهم دورةً صيفية في تعليم اللغة العربية، قلت: "عندما فكرت في مشكلاتي الشخصية، وجدتُها كثيرةً ومستعصيةً على الحل تقريبا، لكنني عندما فكرت في مشكلات أمتي، لم أر لنفسي مشكلة".

---

٢ رسائل ٢٣٩/٧

١ الرسائل ٩/ ١٣٧، وأيضا ٤ / ٤٩٤

ويرد الشيخ على بعض شبهات المستشرقين، فيما يتصل بتعدد الزوجات، والرق: "إن أحكام الإسلام على قسمين: الأول: وهو الذي يُؤسَّس عليه الشريعة، وهو الحسن الحقيقي والخير المحض؛ الثاني: الشريعة المعدِّلة، أي أن الشريعة تأتي وتُخرج الشيء من صورته البشعة الظالمة إلى صورة ملائمة للزمان، والمحيط، قابلة للتطبيق، حسب الطبيعة البشرية، أخذاً بالصورة المُعدَّلة، اختياراً لأهون الشرين، وأخف الضررين، حتى يتيسر الوصول إلى الحسن الحقيقي تماماً؛ لأن رفع أمر مستأصِلٍ في الطبيعة البشرية، يقتضي قلب الطبيعة البشرية رأساً على عقب.. وعلى هذا فالشريعة ليست هي التي أوجدت الرق، بل هي التي أوجدت السبل، ومهدت الطريق، لتحويل الرق من أقسى صوره، إلى ما ييسر الوصول إلى الحرية التامة، والانتقال إليها ... ثم إن تعدد الزوجات إلى حد الأربع زوجات، مع أنها موافقة لطبيعة الإنسان والحكمة، فإن الشريعة لم تجعلها من الواحدة إلى الأربعة، بل نزلتها، ونقصتها من الزوجات الثمانية إلى الأربعة، ولاسيما قد وضعت شرائط في "التعدد" بحيث لا تؤدي مراعتها إلى ضرر ما، وحتى لو حصل في بعض النقاط شر، فهو شر أهون، وأهون الشر عدالة إضافية (نسبية)، إذ الخير المحض لا يمكن أن يحصل في جميع أحوال العالم ، هيهات!!!".

ويضيف قائلا: "إنه لا رُقي لنا إلا بِرُقِيّ الإسلام، الذي هو مِلّيَتُنا، ولا رفعةَ لنا إلا بتجلي حقائق الشريعة؛ وبخلافه نكون مصداقاً للمثل القائل "أضاع المشيتين"...".[٣٦]

ويقول أيضاً: "إن أوربا تظن (أن) الشريعة هي التي تمد الاستبداد بالقوة، وتعينه... حاشا وكلا!! إن الجهل والتعصب المتفشيان فينا قد ساعدا أوربا لتحمل ظنا خاطئاً من أن الشريعة تعين الاستبداد.."

وفي الخاتمة نقول: لقد اتسمت دعوة الشيخ دائماً بمنهج القرآن المتمثل في قوله تعالى: **"ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ"** [النحل: ١٢٥].

وإن للشيخ منهجاً متكاملاً ومتميزاً في الإصلاح الديني، والتربوي، والسياسي، وهذا المنهج يرتبط ارتباطاً وثيقاً بوجهة نظره في العدل والعدالة، ويعتمد هذا المنهج على أسسٍ، هي: الإيمان بالله تعالى، والقرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ومنهج الخلفاء الراشدين، وسيرة الصحابة- رضوان الله عليهم-، ودروس الحضارة الإسلامية

---

٢ المصدر نفسه: ٨/ ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٥٧

عبر التاريخ الإسلامي... هذا مع إلمامٍ واسعٍ بثقافةِ العصر الذي كان يعيش فيه وعلومه النقلية والعقلية، وما فيه من زخم سياسي وعلماني.

ومن منهج الإمام المجدد بديع الزمان فى الدعوة إيمانه بالتسامح الرشيد والإيجابي تجاه الآخرين، وبالحوار ضمن فاعليات التواصل مع الآخر، والدفع بالتي هي أحسن وتوضيح الحقيقة القرآنية للخصوم طمعا في تقريبهم وردهم إلى الإيمان أو على الأقل تفادى الصدام غير المجدي معهم. وكان الشيخ يستعين في حواره، وفي دروسه، وكتاباته وردوده ومعاراضاته القرآنَ الكريم والسنةَ النبوية المطهرة مع أقوال السلف. هذا إلى جانب الاستدلالات العقلية التي كان يتذرع بها خصوم الإسلام، وخصوم الأمة الإسلامية. ولم يَدْعُ الشيخ قط إلى العنف، أو مقابلة الإرهاب بإرهاب مثله؛ بل كان يدعو إلى الاحترام المتبادل، والشفقة، والرحمة، والابتعاد عن الحرام، والحفاظ على الأمن، ونبذ الفوضى والغوغائية والدخول في الطاعة.[٣٧]

لقد كان الإمام ينطلق في دعوته من ثوابت إيمانية، أهمّها أن كل شيء يجرى في الكون بقضاء، وأن وقوعَ البلاء من حكمة الدين، القائمِ على الامتحان والاختبار؛ وأن هذا الابتلاء يكون في الأنفس، وفى الأولاد، والزوجات، والأموال، والممتلكات؛ وعلى المرء أن يصبر على البلاء، وأن يعمل على كشفه بالدعاء وبالأعمال الصالحة[٣٨]، وألا ييأس من نصرة دين الله، فقد وعد الله بحفظه، ونصرةِ أهله الصادقين، وبإظهاره على الدين كله، ولو كره الكافرون.

ومن نفس النبع الصافى الذى اغترف منه علماء الأمة الراسخون، يقول مولانا جلال الدين الرومي: "القدرة الحقيقية في الوجود هى القدرة التى لا يحدث إدراكها بالحواس الظاهرة، فوراء يد الحس يدٌ خفية، هى التى تحرك القلم، وهى التى تطلق السهم؛ وتلك القدرة هى قدرةُ روحِ الروح؛ فلا تَعْتَرِضْ على فعل الحق وعلى مشيئته، (لا تكسر السهم)، فليس الرامى بالسهم شخصا، لكنه الحق سبحانه وتعالى... فقَبِّل السهمَ واحْمِلْه إلى المليك، وهذا كناية عن الرضا التام بما جرت به المقادير الإلهية، لأن هناك قوةً خفية قاهرة تسيطر تماماً (على الكون وما يجري فيه)"[٣٩].

---

١ المصدر نفسه ٤/ ٤٠٦.

٢ نفسه ٢٤٢/٧

٣ مثنوى ٣٩٢/٢

وإذا كان الشيخ بديع الزمان قد أعطى نور عينيه للإسلام والمسلمين، وكَتَبَ بهما رسائلَ النور، فإننا نقول مع مولانا جلال الدين الرومي "ما أهون عينين ثمنا للوصول إلى الحق"[٤]، ونقول أيضاً في حق النورسي: "ما أعظم عينين ثمناً للوصول إلى الحق".

فرضي الله عن شيخنا، وأعظم له أجره، وتابع عليه ثواب أعماله وأقواله إلى يوم القيامة.

---

٤ مثنوى مولانا جلال الدين الرومى ترجمة د/ إبراهيم الدسوقى شتا القاهرة- المجلس الأعلى للثقافة ٦٠/٢

المصادر

- القرآن الكريم والسنة النبوية
- كليات رسائل النور (عشرة أجزاء)

١- جلال الدين الرومي، المثنوي، ترجمة ابراهيم الدسوقي شتا، القاهرة، المطابع الأميرية، ١٩٩٧.

٢- بديع الزمان النورسي، في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، إستانبول٢٧-٢٩ ١٩٩٢، سوزلر للنشر، ١٩٩٣.

٣- المؤتمر العالمي لبديع الزمان سعيد النورسي، تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين،١٩٩٦، ط١

٤- جهود سعيد النورسي في تجديد الفكر الإسلامي، ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة الملك محمد الخامس ١٧-١٨، ١٩٩٦

٥- الإسلام على مفترق طرق. رحلة في حياة وفكر بديع الزمان سعيد النورسي، تحرير إبراهيم أبو ربيع، ترجمة محمد فاضل، ط١، ٢٠٠٥

٦- الأستاذ الدكتور الشفيع الماحي أحمد، معالم إيجابية، أو البعد العقدي في فكر النورسي. القاهرة، سوزلر للنشر، ٢٠٠٣

٧- الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس، دراسات في رسائل النور. رجل الإيمان والتجديد في وجه العلمانية والتقليد. بديع الزمان سعيد النورسي، القاهرة. سوزلر للنشر، ٢٠٠٣

٨- جمال الدين الأفغاني، حكيم الشرق ورسالته في الرد على الدهريين للدكتور رحاب خضر عكاوي. بيروت. دار الفكر العربي ١٩٩٣

٩- خديجة النبراوي، دراسات في رسائل النورسي.

١٠- المرأة في الإسلام حرية أم عبودية، سوزلر للنشر ٢٠٠٤

١١- الإمام الشيخ محمد عبده. الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة، القاهرة، دار الشروق ١٤١٤هـ-١٩٩٣م

١٢- الأستاذ الدكتور عشراتي سليمان، النورسي في رحاب القرآن وجهاده المعنوي في ثنايا رحلة عمره. القاهرة . سوزلر للنشر والتوزيع، ١٩٩٩

١٣- الإسلام خواطر وسوانح، تأليف الكونت هنري كاستري، ترجمه من الفرنسة أحمد فتحي زغلول، القاهرة، مطبعة الرحمانية ١٣٢٩هـ-١٩١١

١٤- الأستاذ الدكتور محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة،١٤٢٧هـ-١٩٩٧م

١٥- فيليب فارج ويوسف كرباج، المسيحيون واليهود في التاريخ الاسلامي العربي والتركي، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، سينا للنشر ١٩٩٤

١٦- أ.د. محمود حمدي زقزوق، الإسلام في تصورات الغرب، القاهرة. مكتبة وهبة ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧م

١٧- طارق منينة، أقطاب العلمانية في العالم العربي والإسلامي، دار الدعوة ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م

١٨- نعوم تشومسكي. إرهاب القراصنة وإرهاب الأباطرة قديما وحديثا. تعريب أحمد عبد الوهاب. القاهرة، دار الشروق ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م